مجمع الفقه الإسلامي الدولي
منتدى الفكر الإسلامي

فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة

المحاضرة والمناقشة

أ.د. حسن الوراكلي
الأستاذ بجامعة أم القرى
والخبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي

يوم الثلاثاء ٢٣ صفر ١٤٢٨هـ الموافق ١٣ مارس ٢٠٠٧م

تقديم

لفضيلة الدكتور عادل قوته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فُطر كل إنسان، بل كل حيوان على أن يفرق بالغريزة، بين ذويه ومن يلوذ به، وبين غيرهم ممن قد يوصفون بـ"الأجانب".

وما كان للإسلام- وهو دين الفطرة- أن يتجاهل هذه الدوافع الفطرية، بل أقرها وهذبها وسما بها. وهداها إلى أقوم طريق، ودفع عنها شر التعسف وسوء المغالاة.

وإن لفظ "الأجنبي" ما فتئ يتغير في المجتمع الإنساني. تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والأمة.

فهو قد يُبنى أحياناً على أساس القرابة الدموية، التي تلاحظ اختلاف العصر واللون واللسان، وأحياناً على الأرض والمسكن ومسقط الرأس، وطوراً على فلسفة الحياة، أو المذهب أو الحزب، كما أنها أيضاً تبنى على الدين.

ولئن رجح المسلمون في ظل حضارتهم الدين أساساً للوطنية، وفارقاً بين الأهالي وغيرهم، فإن غير المسلمين من سكان ديار الإسلام لم يكونوا "الأجانب"، بل لقبهم الشرع الشريف بلقب دال معّبر لقبهم بـ" أهل الذمة"، ومعاني الذمة وما يشتق منها تدور على: العهد، والأمان، والحرمة، والكفالة، ثمّ هي كلمة توحي بأن لغير المسلمين من مواطني الدولة المسلمة أن يعيشوا آمنين مطمئنين، وأجمع المسلمون منذ العصر الأول إلى اليوم على ذلك.

قال الإمام أبو يوسف القاضي –رحمه الله تعالى- مخاطباً كبير ملوك الأرض في عصره أمير المؤمنين هارون الرشيد: وقد ينبغي يا أمير المؤمنين –أيدك الله– أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ،

والتقدم لهم حتى لا يُظْلَموا ،ولا يُؤْذَوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من ظلم معاهداً أو أنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه. فأنا حجيجُه يوم القيامة .

وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- عند وفاته: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

وقال الإمام القرافي –رحمه الله- : إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خِفارتنا ، وفي ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام.

فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة دين الإسلام.

أقول: فما بال بعض السفهاء الممر ودين المارقين –اليوم- يُنكِّسون رؤوس أهل الإسلام ويُخفرون ذمتنا باستباحة الدماء المعصومة وترويع المستأمنين والمعاهدين والذميين في أماكن متعددة من ديار الإسلام.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها ، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهده ، فليس مني ولست منه. أخرجه مسلم.

هذا ولقد أفرد فقهاء الإسلام –من زمن مبكر فصولاً معمقة مطولة في مدوناتهم لشؤون أهل الذمة والمستأمنين في الدولة المسلمة، وجاءت فصولهم هذه ألواناً من الدراسة المؤسسة لعلم الحقوق الدولية، أو علم السير وأحكام أهل الملل

كما يعبر فقهاؤنا ، بها عرف رجال التشريع في العالم ما أوتيه علماء الإسلام من رسوخ وبعد نظر ورحابة فكر في تأسيس هذا العلم ومدة رفع بنائه في التاريخ .

وفي هذه الليلة الندية يحدثنا عن جانب من هذا العلم محاضرنا لهذه الأمسية ، ومحاضرنا علّم من أعلام النبوغ المغربي، وعالم باحث من أرفع باحثيه وعلمائه هو أستاذي العلامة الجليل المتفنن الأستاذ الدكتور/ حسن عبد الكريم الوراكلي.

الأستاذ الدكتور/ حسن عبد الكريم الوراكلي:

- ولد يحفظه الله تعالى ١٧ مارس عام ١٩٤١م، بمدينة تطوان بالمغرب الشقيق .
- حصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بفاس جامعة سيدي محمد بن عبد الله،
- دبلوم الدراسات المعمقة العلياء في الآداب بالكلية نفسها.
- وعلى الإجازة العليا في العلوم الإسلامية –كلية أصول الدين –جامعة القرويين.
- دبلوم في الفقه والآداب –المدرسة العليا للأساتذة- بالرباط.
- دبلوم في اللغة الإسبانية.
- ماجستير في الآداب الأندلسية من جامعة مدريد المركزية- بإسبانيا.
- دكتوراه دولة في الآداب الأندلسية من الجامعة نفسها.

هذا إضافة إلى جملة إجازات علمية رفيعة من أكابر شيوخ الرواية والدراية بين مغاربة ومشارقة.

- عمل أستاذاً بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة محمد الأول بمدينة وُجدةَ بالمغرب.

- أستاذاً بقسمي الدراسات العربية والدراسات الإسلامية بكلية الآداب بجامعة عبد الملك السعدي بتطوان، و رئيساً لقسم الدراسات العربية بها.
- أستاذاً بقسم الدراسات العليا العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- أستاذاً بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

أسس بكلية الآداب بتطوان (ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية)، ودعا للمشاركة في ندواته الدورية أبرز المتخصصين في تراث المغرب والأندلس من الجامعات العربية والغربية.

- شارك في جملة ممتدة من الندوات والمؤتمرات والمنتديات العلمية والفكرية والأدبية في المغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، والمملكة العربية السعودية، والإمارات، وليبيا، والنيجر، وباكستان، وإسبانيا، وفرنسا، وألقى بعدد منها عدداً من المحاضرات.
- شارك في تحرير مواد موسوعة المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم عن (أحلام العرب والمسلمين).
- نشرت بحوثه وتحقيقاته أو مترجماته وأعماله في صحف ومجلات محكمة مغربية ومشرقية.
- أسس مع صديقه المرحوم الشيخ محمد المنتصر الريسوني مجلة ثقافية أدبية باسم (النصر).
- أذيعت أحاديثه من الإذاعة الوطنية بالمغرب ضمن برنامج ومضات، وإذاعة القرآن الكريم من الرياض في برنامجه معجزات القرآن الكريم: نصوص وتعاليم، وإذاعة نداء الإسلام بمكة المكرمة (قضايا اجتماعية في الكتاب والسنة).
- عضو رابطة علماء المغرب.
- عضو اتحاد كتاب المغرب، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- عضو جمعية المؤرخين الموريسكيين بتونس.

من آثاره وأعدُّ منها ولا أعددها ، وأتخير منها ما يمكن أن يكون معبراً عن أوجه النبوغ المتعددة لمحاضرنا. ففي التراث الأندلسي والمغربي.

❖ القرآن وعلومه في آثار الأندلسيين.

❖ القاضي عياض مفسراً.

❖ الأجازة العلمية عند الأندلسيين.

❖ ياقوتة الأندلس.

❖ جهود أبي القاسم السهيلي في الدرس القرواني.

❖ شيوخ العلم وكتب الدرس في سبته.

❖ ابن عبد البر الأديب.

❖ نصوص أندلسية في الفقه والتاريخ والأدب.

وله في مجال الفكر والثقافة

- الإسلام والغرب: محاور التحدي وشروط المواجهة.
- المسلمون وأسئلة الهوية.
- ثقافة الحوار الحضاري عن المسلمين (تأملات في سؤال المفهوم والإجراء).

وفي مجال التحقيق للنصوص:

- أحكام القرآن لابن الفرس الغرناطي.
- المقامات اللزومية لأبي الطاهر السرقسطي.
- الإعلام ببعض من لقيته من علماء الإسلام لعبد الواحد السجلماسي.

وفي مجال الترجمة:

- ابن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس.
- ابن سيدة المرسي دراسة في حياته وتراثه المعجمي(مترجم بالإسبانية).

- طيوف إسبانية (دراسة ونصوص من الأدب الإسباني المعاصر).
- التراث الأندلسي في آثار المستعمرين الأسبان.

في مجال البيلوجرافية:

- أبو الفضل القاضي عياض ثبت ببليونرافي.
- لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين.

وله في مجال الإبداع رسائل وإخوانيات وسيرة ذاتية وكلمات وقصص قصيرة منها:

- فيوض: رسائل من أب إلى ابنته المغتربة في طلب العلم.
- مصابيح: رسائل من أب لابنه المغترب في طلب العلم.
- رقاع مراسلات بينه وبين العلامة المحدّث الشيخ محمد الأمين بوخبزه الحسيني.
- الغدايا والعشايا، وغيرها.

جعل الله تعالى جميع آثاره وآثارنا في الباقيات الصالحات.

وهو يحفظه الله تعالى عندي وعند جميع من يعرفه أجّل من يعرف به في مثل هذه التقدمة المجتزأة لكن عن البحر اجتزاء بالوشل، وقد كتبت حول منهجه الدراسي وجهوده في البحث والتحقيق عدة أطاريح علمية، وأقيمت وفاءً ببعض حقه حفلات تكريمه في المغرب وفي هذه البلاد.

أظن أنكم تتوقون، كما أني معكم أتوق إلى محاضرنا استاذي الدكتور/حسن الوراكلي، ومحاضرته : فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في كتب فقهاء الأندلس.

المحاضرة

لفضيلة الأستاذ الدكتور/ حسن الوراكلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلمنا وقدوتنا سيدنا محمد ،وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

شيخي وأستاذي العلامة الفقيه المحقق الأستاذ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجه.

حضرات الزملاء والإخوة العلماء والباحثين،أحييكم بتحية الإسلام : سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

في بداية هذه المسامرة وأنا أقصد بالمسامرة حتى أضمن لها القبول لخفتها وعدم عمقها ، أقول في مستهل هذه المسامرة: أحب أن أزجي الشكر لشيخي وأستاذي الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجه على دعوته في للمشاركة في هذه السلسة من المحاضرات القيمة التي تنظم في هذه القاعة. وأحب كذلك في مستهل هذه المحاضرة أو المسامرة أن أشير إلى أمر تنبني عليه فقرات هذه المسامرة وهو عنوانها ، لقد كان العنوان كما ذكر أخي الأستاذ الدكتور عادل (التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة) وبد لي أن أعدل في هذا العنوان حتى استوعب به فقرات المسامرة على النحو التالي: (التعاون الحضاري بين المسلمين والذميين في المتن الفقهي " النص والممارسة")، وأنا في هذا التعديل كانت لي مآرب، وأشهد أنه لم يتضح لي هذا التعديل إلا مساء اليوم، فقد جلست أرتب مادة هذه المسامرة وأقمصها وأجمع أطرافها في أيام معدودات حتى كان هذا المساء فبدا لي أن هذا العنوان أجمع لفقرات هذه المسامرة.

أشير كذلك –ثالثاً وأخيراً- إلى أن موضوع هذه المسامرة موضوع قديم حديث، وقد كان مدار البحث والقول في المدوّنات الفقهية مما كتبه فقهاء المذاهب في المشرق والمغرب، ومما أفرد به بعض الفقهاء هذا الموضوع وقصروا عليه كتاباً من كتبهم أو رسالة أو أكثر من رسائلهم.

وهو حديث باعتبار أن ما يعرفه عصرنا من تيارات وتغيرات وطوارئ في سياقات فكرية وثقافية وسياسية واقتصادية كل أولئك تشكل بواعث على معاودة النظر في مادة هذا الموضوع سواء أكان ذلك مما يمس حياتنا الراهنة أم كان مما ينظر إلى تراثنا في إطار هذا الموضوع أي علاقة المسلمين بالذميين. وأقول: إن مادة هذه المسامرة مادة تراثية أردنا بها أن نستجلي في النص الفقهي ناحيتين اثنتين مما تشكل به جوانب العلاقة بين المسلمين والذميين. الجانب الأول جانب نظري تجريدي، وهذا نلمسه أو سوف نتتبعه في النص الفقهي على نحو ما سأشرح بعد الآن.

والجانب الآخر جانب تطبيقي، جانب ممارسة، وهذا كذلك أخذت على نفسي من قبل هذه المحاضرة في مناسبة علمية سابقة أن التمسه في غير تراث واحد من تراث علماء الإسلام وفقهائه وأدباء الإسلام والعربية ومؤرخيه كذلك، لكنني اليوم حرصت على أن اقتصر أو أن أظل داخل السياج الفقهي سواء حين مضيت أبحث عن أدبيات عقد الذمة في نصوصه المصدرية، ثم في نصوصه الاستنباطية. أيضاً حرصت على أن أظل مرتبطاً بهذا النص، منقباً فيه باحثاً عمَّا يمكن أن يكون سوى بين نصوصه مما يفيد في استجلاء الجانب الثاني وهو الجانب المهم الذي أحسب أن كثيراً ممن عنوا بدراسة الفقه –فقه الذمة- كانوا لا يولونه ما هو به جدير إلا ما كان من أمر إيراد بعض الوقائع والمرويات المتصلة بهذا الجانب التطبيقي.

أمّا في هذه المسامرة فإنني حرصت على أن أتتبع في النص الفقهي وليس في النص التاريخي ولا في النص الأدبي ولا في غير هذا النص أو ذاك، ولكن في النص الفقهي نفسه ما يمكن أن يشكل عندي ما أسميته بالممارسة أو التطبيق. هذه الأدبيات المتعلقة بفقه الذمة نقرؤها في المدونات الفقهية في الكتب المفردة فنجد أنفسنا كما تجدون أنفسكم في كثير من الأحيان أمام كلام مُعادٍ مكرور. ثم لا نكاد نظفر بعد ذلك بما يمكن أن يبلور لنا تلك الكتابات النظرية إلى واقع معيش، أو إلى واقع كانت الأمة تعيشه في هذه البقعة أو تلك في هذا المجتمع أو ذاك

من مجتمعات العالم الإسلامي. أعود فأقول: إن هذا الموضوع قديم وحديث، قديم بما أشرت إليه وحديث بما ألمحت إليه، ولكن معالجة هذا الموضوع ولو كانت قائمة على أرضية تراثية شأن هذه المسامرة إلا أننا نحب استكشاف خلفياتها ومرجعياتها وشواهدها، نحب أن تكون قادرة على أن تؤثر في نظرتنا إلى ما تواجه به الأمة الإسلامية اليوم من تحديات سواء من خصومها أو أحياناً حتى من المحسوبين من أبنائها يسيء أولئك بما لديهم من تصورات خاطئة و يسيء إليها هؤلا بما يصور لهم من شأنها الذي ينبغي أن يغير كما يحسبون.

أول ما أشير إليه انطلاقاً من العنوان الذي أسلفت الإشارة إليه هو التعاون الحضاري بين المسلمين والذميين في المتن الفقهي"النص والممارسة"، إلا أنه بوسعنا أن ننطلق في هذه المعركة التي ما فتئت الأمة الإسلامية تخوضها منذ عقود وعقود والتي سميت حيناً بحوار الحضارات، وحيناً بصدام الحضارات، وحيناً بمواجهة الغرب، وحيناً بما يطلق عليه من صراع الحضارات، تسميات كثيرة. بدا لي وأنا أكتب رسالة كنت أسميتها(الإسلام والغرب، محاور التحدي وشروط المواجهة) إلى أن الأمر بحاجة إلى تأنٍ، فليس هو بما ينم عليه من صراع ولا من حوار ولا من صدام ولا من شي من ذلك، بدا لي الأمر بحاجة إلى تعارف، وأن التسمية التي يمكن أن تكون معبرة على ما يقوم بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم ليس صراعاً وليس مواجهة وليس صداماً ولكنه في حقيقة أمره بحاجة إلى أن يبحث له عن أسم جديد ليس من أسم أوفق له من قضية التعارف، والمنطلق في ذلك قد يكون نقيضاً، المنطلق هو الاختلاف، والاختلاف سنّة إلهية تتجلى لنا في كل شيء، والله سبحانه وتعالى يقول:في محكم كتابه:(**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**). هذا الاختلاف الذي هو سنة إلهية بوسع الإنسان أن يحوله من السلب إلى الإيجاب، وإنما يتم ذلك بما يمكن أن تنفقه الإنسانية الواعية المتزنة التي تحسن التفكير في فهم آية أخرى من آيات المصحف الشريف وهي قوله سبحانه وتعالى: (**يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) نجد أنفسنا بإزاء معانٍ ودلالات. الخطاب الأول الذي تفتتح به هذه السورة موجه إلى المؤمنين، ويتكرر هذا الخطاب

الموجه للمؤمنين، ثم يأتي الخطاب بـ (يا أيها النّاس) يعني نحن نقول: إن الحج فرصة لتعارف الشعوب الإسلامية، ليس القصد هنا لتعارف الشعوب الإسلامية المفروض أنها تكون متعارفه، ولكن القصد هنا أن تتعرف الشعوب الإسلامية على غيرها من الشعوب وأن يتعرف غيرها من الشعوب عليها. في هذه الآية القصيرة الموجزة يلفت نظرك وحدة الأصل الإنساني (**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى**) مسلم، يهودي، نصراني، مجوسي، أياً كانت عقيدته وأياً كان توجهه، وأياً كانت أيديولوجيته يربطك به وحدة الأصل، أيضاً يلفت نظرك فيها الإقرار بالتنوع الإنساني (**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**) ليس الناس على شاكلة واحدة ولا على صورة واحدة، ولكنه تعدد واختلاف في الألوان والملامح واللغات والألسنة، إلى آخره. والقصد دائماً من ذلك هو التعارف، وحتى حينما يقول سبحانه وتعالى: (**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**). بدا لي أنه ليس القصد فقط من الألسنة اللغات ولكنه كذلك ثمة معنى في هذه الكلمة معنى الثقافات فلكل شعب من شعوب الأرض مرجعيته العقدية والمذهبية والثقافية والفكرية، وليس يعبر عن هذه المرجعية بجميع مستوياتها إلا عضو واحد في الإنسان هو اللسان، ويراد باللسان اللغة، فهنالك اختلاف اللون واختلاف اللغة وبذات الوقت اختلاف الثقافات. وأنا في كل هذا أحاول أن أفكك هذا العنوان.

نأتي إلى التعارف، وقلت إنه يمكن أن تستثمر ظاهرة الاختلاف لتوظيف التعارف بين الشعوب من أجل قيام مجتمعات تسودها روح السلم وروح التسامح وروح التواصل، إلى آخره. وواضح لنا جميعاً أن صيغة التعارف دالة على الصيغة العربية لكلمة التعارف، دالة على أن الأمر بين طرفين، ليس ينهض به طرف واحد، فكل تفاعل دال على أن الأمر يشترك في انجازه الطرفان، وكذلك حينما آتي على وصف التعارف بالحضاري أسحب هذا الوصف على الصيغة الأولى (التفاعل) فكل ما يمكن أن ينهض به أو أن تُناط به فئة في إطار التعارف ينتهي بها قيم الحضارة بمفهومها العقدي والثقافي والفكري وبمثلها الأخلاقية السوية وبمثلها الروحية التي تتماسك بها النفوس مثلما تتماسك بها الشعوب. هذه التقدمة للبحث عن علاقة المسلمين والذميين في المتن الفقهي كما قلت. هذا المصطلح أردت به مستويين من

المتن الفقهي، أولهما: المستوى المصدري، وهذا يلتمس في الأصلين: الكتاب والسنة، مضافاً إليهما عمل الصحابة من الخلفاء الراشدين ومن عاصرهم، وإجماع الأمة. هذا هو ما يشكل بنية مستوى النص المصدري. ثم يأتي المستوى الثاني وهو المستوى الفرعي أو المستوى الاستنباطي، والمراد به ما كتب فقهاء الأمة على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم الفقهية في موضوع الذمة. أشير كذلك هنا إلى أن المتن الفقهي المستنبط في هذا الموضوع لا يقتصر دارسه أو قارئه على فائدته الفقهية، فالمتن الفقهي في كثير من الأحيان تقرؤه فتفيد فقهاً، وتفيد توثيقاً، وتفيد أدباً، وهذا قد لا يلتفت إليه كثير من الناس، لكن النصوص الفقهية المستنبطة بما في ذلك ما يتعلق بموضوع المسامرة ليست كلها على شاكلة واحدة ولا هي كلها بهذا الثراء الشكلي والمضموني، حقاً تقف في بعض النصوص على ما يفيدك فقهاً وما يفيدك توثيقاً، أي يفيدك بما يتعلق بمجتمع الفقيه في بُعده الاقتصادي وفي بُعده الثقافي وفي بُعده الاجتماعي، ثم قد يفيدك المتن الفقهي أحياناً بما تحسب أنه لن يكون متوفراً عليه هو جمال اللغة العربية وبهاؤها. هذه إذن بعض ما يتعلق بمقدمات ممهدات لفقرتين تشكلت منهما هذه المسامرة. طبعاً أنا لا أحب أن أثقل عليكم بالحديث عن الذمة في اللغة والاصطلاح والتعريف بها وبما قال عنها أو فيها الفقهاء وانتقل إلى الفقرة الأولى من هذه المسامرة وهي التي عنونتها من عقد الذمة إلى التعارف الحضاري. وقد عالجت فيها أو عرضت فيها العناصر التالية، طبعاً هذه الآن لا مفر منها، لا بد من الحديث عن مشروعية عقد الذمة، ولا بد من الحديث عما عرف به فقهاء الأمة عقد الذمة لأخلُص من ذلك إلى طرح هذا السؤال: ما صورة الذمي التي يمكن أن تستخلص من عقد الذمة كما بسط القول فيه فقهاء الأمة؟. حتى استبق الأحداث أو القول أشير إلى أنني خرجت أو استخلصت صورة مركبة للذمي من عقد الذمة المنصوص عليه بأسلوب أو بآخر في المدوّنات الفقهية، وجه من هذه الصورة وجه سوى على استواء، ووجهٌ ثانٍ آخر وجهٌ مُكِبٌ على أكباب، لكن الأهم من ذلك عندي أنني استخلصت من عقد الذمة مشروعيته وتعريفه ما يمكن تسميته بالطريق أو النهج إلى الظفر بما أسميناه التعارف الحضاري. قد لا تكون به حاجة إلى أن أعرض عناصر مشروعية عقد الذمة وأكتفي بهذه الإشارة السريعة،

ففي أصل القرآن الكريم قوله تعالى: (**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**).

أما في السنة فثمة نصوص كثيرة قوليه وفعلية، كان رسول الله ﷺ إذا وجّه أميراً أو قائداً لغزوة أو لبلد خاطبه بما يكشف عن مشروعية الجزية وعقد الذمة. ومن العملية معروفة مواقف رسول الله ﷺ من نصارى نجران ومن يهود المدينة ومعاهدته معهم ولا نطيل بذلك. وأيضاً حينما نستعرض سير خلفاء الأمة (الخلفاء الراشدين) نجد أنهم كانوا ينسجون على منوال رسول الله ويقتفون في قوله وعمله، وقد أفاضت كتب الفقهاء وخاصة منها المفردة بفقه الذمة في الحديث عن إجماع الأمة على عقد الذمة وما إليه. وتعريف عقد الذمة قد يبدو لأول وهلة لمن يستعرض متنه عند فقيه وآخر أنه قد تكون ثمة فيما كتب هؤلا الفقهاء ما لا ينتظمهم في خيط واحد، والحقيقة غير ذلك، فإن لغة هذه التعاريف ربما يكون أسلوبها مختلفاً من متن إلى آخر، ولكن مضمونه مضمون واحد أعرض مثالين منه. من ذلك ما عرف به الإمام محمد بن الحسن الشيباني بكون عقد الذمة عقداً ينتهي به القتال. هل ثمة شيء آخر ينتهي به القتال؟ نعم، الإعلان عن الإسلام، أن تُسلِم لا تُقاتل، أن يتفق مع أهل بلد كان يصل إليها جيش الإسلام الفاتح على الجزية لا يقاتل حين ذاك. يقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني إنه عقد ينتهي به القتال يلتزم به الذمي أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات والرضا بالمقام في دار الإسلام.

الكاساني في(بدائع الصنائع) يوجز التعريف فيقول: إنه الأمان المؤبد، وأحياناً تتضمن هذه التعريفات ألفاظا ذات حمولة كبيرة من التسامح والتعايش والرعاية التي يكفلها الإسلام لمن يأتي إليه راغباً في كفالته وفي حمايته بمقابل بخس.. الجزية حينما لا يتسع الوقت ولا أحب أن يتسع وقتي لذلك، حينما تنظر فيما كان يسدد به النصارى القادرون مادياً تجد الأمر في منتهى الزهادة لا قيمة له ويكسبون بذلك حماية ورعاية واهتماماً وحرية إلى آخر ما تعلمون. الكاساني في(بدائع الصنائع) يقول: هو- أي عقد الذمة- الأمان المؤبد الذي ينهي القتال بين

المسلمين وأهل الذمة. إلى آخر ذلك لا أطيل بهذه التعريفات فهي كما قلت وإن اختلفت لغتها واختلفت أساليبها تبقى مضامينها واحدة ولا اختلاف بينها تقريباً.

لا بد من الإشارة كذلك قبل أن أنتهي إلى الفقرة التي أحسب أنها لب هذه الفقرة الأولى من المسامرة لا بد من الإشارة إلى حقوق الذميين. كفل لهم الإسلام حقوقاً. وحقيقة أن النص أو المتن المستنبط لم يكن على شاكلة واحدة –هي مفهوم الفقهاء- في التعاطي مع عقد الذمة ومع ما كفله الإسلام لأصحاب هذا العقد من حقوق، لكن بالجملة يمكن القول بأن الإسلام كفل لهم ما يكفله للمسلم من حماية لدمائه ولأعراضه ولكافة ما تقوم به حياته. ماذا اكتسب بذلك الذمي في تراثنا؟ اكتسب هذه الرعاية في مقابل تلك الجزية وفي مقابل واجبات كان عليه أن ينهض بها. إذا رجعنا إلى أدبيات هذا العقد الدراسات الفقهية الحديثة قد نجد أنفسنا إزاء نظرات أخرى متطورة، لكنني مع ذلك حينما أقرأ عند أحد من الناس الذين كتبوا في موضوع عقد الذمة من فقهاء العصر وذهب بعضهم إلى أن من تم معه من الأجانب عقد الذمة سواء كان أهل البلد أو كان من الطرأة عليه يكتسب بها حق المواطنة أو حق الجنسية لا أجد جديداً، فالمجتمع الذي يمكن أن تستخلص ملامحه من الصحيفة النبوية أو من معاهدة رسول الله ﷺ ليهود المدينة ترسم لنا ملامح مجتمع يتشكل إلى جانب العقيدة والدين من عنصر المواطنة. المهم هذا لا أقف عنده.. كما قلت الكفالة أو رعاية الأموال والدماء والأعراض، وفي مقابل ذلك سنجد الذمي يطوف بواجبات عليه أن ينهض بها، كلها حينما تفتشها تجد أنها في صالح هذا الذمي سواء كان هذا الصالح روحياً أو نفسياً أو مادياً أواقتصادياً أو اجتماعياً، هنالك جانبان من هذه الواجبات تتوزعها المعاملات والعبادات لكن حينما نعود إلى ما أكتسب به الذمي الكفالة أو الرعاية المتجلية في تلكم الحقوق التي أشرنا إليها نجد أن واجباته تكون محدودة الجزية والخراج، وفيما اشترطه بعض الفقهاء وهو مراعاة مشاعر الآخر الذي كفله. أهم شيء أحسب أنني استخلصته مما كتبه الفقهاء عن عقد الذمة وحقوق الذميين وواجباتهم صورة الذمي، وهي صورة مركبة- كما أسلفت إليه –جانب منها سوي، وجانب منه غير سوي. الجانب السوي تستطيع أن تقف عليه عند القرافي في(الفروق) حينما يقول: إن

الذمي يكتسب بعقد الذمة أو يلزم بعقد الذمة المسلمين بجملة أمور يستفيد منها روحياً ومادياً ومعنوياً وتطبع شخصيته بطوابع الشعور لا أقوال بالاستعلاء، ولكن بقوة الشخصية، وتفسح له في مجتمع الإسلام مكاناً مُحاطاً بالتقدير والاحترام هذه الشخصية يكتسب الذمي عناصرها من رعاية المسلمين، وذلك بالرفق به، بسد خلة الفقير من الذميين وإطعام الجائع وكساء العاري وتليين القول على سبيل اللطف له والرحمة به، احتمال اذايته في الجوار مع القدرة على أزالته لطفاً به، الدعاء له بالهداية- أنا أتصرف الآن في لغة القرافي- وأن يجعل من أهل السعادة، والنصح له في جميع الأمور في دينه ودنياه وحفظ غيبته إذا تعرض أحد لأذيته، صون أمواله وعياله وأعراضه وجميع حقوقه، وإعانته على دفع الظلم، وإيصاله إلى جميع الحقوق أو المستحقات. مثل هذا الشخص حري بأن يستشعر الوجود أو الكينونة الفكرية والعقدية والنفسية والمادية، وأن يدرك أن له مكاناً في المجتمع محاطاً بالتقدير والرعاية. لا شك أن الذمي كأي من الناس (**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) شأنهم شأن الناس، كان فيهم السوي وكان فيهم المكب، والمكب منهم آثار مشاعر المسلمين وآثار مشاعر فقهاء المسلمين، وحمل بعضهم إلى أن يسحبوا الأوصاف المكبّة السيئة على كافة الذميين وخاصة طائفة من الذميين كان فسح لها في تولي مناصب الأمة الحساسة فلم تحسن التصرف وما رعت ما أسند إليها فأثار ذلك ... لم يُثر فقط مشاعر المسلمين وقد أثارها في حادثة تاريخية لعلني أذكرها ولكن أثار مشاعر الفقهاء فكتبوا يصورون الذمي بالإطلاق صورة مُكّبَة سيئة وهي ليس إلا وجهاً من وجهي الصورة، من ذلك على سبيل التمثيل ما كتبه ابن النقاش الشافعي المصري الدوكالي المغربي، وإذن كلاهما مغربيان. القرافي الذي قدم لنا الصورة التي تستوي بها شخصية الذمي، وابن النقاش في كتابه أو رسالته وهي رسالة حقيقة جديرة بالقراءة التي سماها (المذمة في استعمال أهل الذمة) ولا أطيل بما أورده ابن النقاش الدوكالي في هذه الرسالة، ولكن خلاصة القول: إن الملامح التي اكتسبتها شخصية الذمي في كتابات ابن النقاش تعرض صورة رجل ذى شخصية عدائية غير مقرة بمن رعوا له حقوقه، إلى آخر ذلك.

وانتقل بعد هذا إلى العنصر الثاني الذي قلت إنه مهم في هذه الفقرة وهو العنصر الذي سميته من عقد الذمة إلى التعارف الحضاري. ماذا أفاد المجتمع الإسلامي وأفاد المسلمون بعامة؟ وماذا يمكن أن يفيد كذلك راهناً ومستقبلاً من عقد الذمة بصرف النظر عما يمكن أن يسمي أو يستخلص منه على ما بين الفقهاء من خلاف في ذلك قدماؤهم ومحدثوهم؟.

وقد ألم القرافي- رحمه الله- بشيء كثير من ذلك يحقق تأليف قلوب أهل الذمة المقيمين في المجتمع الإسلامي، وذلك بحسن معاملتهم . مخالطة المسلمين لهم باستمرار بحكم المجاورة وبحكم الوظيفة وبحكم العمل المشترك، يتيح لأهل الذمة التعرف على أحوال المسلمين وعلى أخلاقهم وسلوكياتهم، طبعاً هنا لا بد أن نفتح قوساً نرجو أن يكون من يتعرف عليه هؤلاء الذميون بالمجتمع الإسلامي مسلما قلباً وقالباً لأنهم فيما سمعنا وفيما عرفناه في العصر الحديث وقد بدأ الإسلام ينتشر في كثير من أقطار أوروبا ومن جملتها أسبانيا وخاصة جنوب أسبانيا (الأندلس) سمعنا أن بعض من أسلموا من النساء حينما انتقلت أحداهن إلى وطن الزوج وخالطت ذويه استنكرت على شقيقاته أشياء كثيرة تتعلق بالسفور وبالمعاملة وغيرها، لأنها دخلت قوية ومتثبتة ومتمسكة فهالها ذلك فتساءلت هل الإسلام عند هؤلاء غير الإسلام الذي كنا نبلغ به؟ المهم أقول: تتاح الفرصة لهؤلاء الذميين على التعرف على الحياة الإسلامية، سلوكيات المسلمين وأخلاقياتهم ومواقفهم، وكذلك المجتمع المدني بشكل تكافله، تضامنه، القيم الحضارية المكرسة التي تسترشد بها فئات الناس في المجتمع والتي تنبع من الكتاب والسنة. النتيجة لذلك كسب- وهذه المرة كسب لنا وليس للذمي- كسب المسلمين تقدير الذميين وكسب احترامهم، وأيضاً وهذا هو الأهم ربما أن نكسب إسلامهم على الطواعية والاختيار. وكما يقول سبحانه وتعالى: (**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**). طبعاً كل ما وصف به القرافي مما يلزم المسلمين في تكوين شخصية الذمي لا ينتهي إلى مستوى المودة ولذلك حديث آخر، لكنني قبل أن أختم هذه الفقرة أشير إلى نصين في غاية الأهمية يؤكدان على هذا.

النص الأول: للإمام محمد بن الحسن الشيباني وهو يكشف لنا عن أهمية عقد الذمة في الوصول بصاحبه إلى التعارف إذ يعلن إسلامه: {إن طلب قوم من أهل الحرب أن يصيروا ذمة للمسلمين تجري عليهم أحكام الإسلام على أن يؤدّوا عن رقابهم وأعراضهم شيئاً معلوماً فأنه يجب على الإمام أن يجيبهم إلى ذلك لأن عقد الذمة ينتهي به القتال كالإسلام، فكما أنهم لو طلبوا عقد الإسلام عليهم يجب إجابتهم إلى ذلك، فكذلك إذا طلبوا عقد الذمة،وهذا لأنهم يلتزمون أحكام الإسلام بهذا الطريق فيما يرجع إلى المعاملات}. ثم يقول الإمام الشيباني:{ربما يرون محاسن الشريعة ويسلمون، فكان هذا في معنى الدعوة إلى الدين بأرفق الطريقتين}. ويقول في نص آخر: {إنما قبلنا منهم عقد الذمة ليقفوا على محاسن الدين، فعسى أن يؤمنوا، واختلاطهم بالمسلمين في السكنى معهم يحقق ذلك}. ومثل هذا النص مثله في المعنى وفي المضمون أي الانتهاء بعقد الذمي من مستوى العقد والرعاية التي يكفلها له المسلمون إلى الإسلام مثله في ذلك نص للعز بن عبد السلام.

ألمحت في مقدمة هذه المسامرة إلى أن جلَّ ما كتب عن الذميين كان لايتخطى الأفق التنظيري، وبنفس الوقت مكروراً، وجُلّه إما مما عرفه صدر الإسلام –عهد النبوة وصدر الإسلام- وبعض الأحداث الملتقطة من عصر بني أمية وبني العباس. في دراسة أخرى لي كنت أحببت وفي نطاق المصدر الفقهي لا غيره أحببت أن أجمع ما يدل بشكل وقائع وأحداث على مصداقية عقد الذمة، وكان لا بد وأن يقع اختياري لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن على مجتمع تميز بتعايش طويل المدى كثير الثمرات في نطاق مجتمع فسيفسائي الشكل هو المجتمع الأندلسي، المسلمون واليهود والنصارى، والمسجد والبيعة والكنيسة، والدولة الإسلامية بطبيعة الحال هذه المستويات. في هذا المجتمع وجدت ما يقدم لي حقيقة من خلال النص الفقهي كتب النوازل، كتب الجدل الديني، كتب بعض الموضوعات الفقهية الخاصة مثلاً موضوع الفرض عند أحد فقهاء الأندلس، كتب تراها فتحسبها فقط تتضمن مادة فقهية محضة لكنها تقدم إليك مادة توثيقية تاريخية تمس الجانب الاجتماعي والعقدي،والثقافي، والفكري في كثير من جوانبه. استخلصت من المصدر الفقهي هذه المادة وصنفتها: المادة الدالة على تفعيل عقد الذمة

في الحياة اليومية. طبعاً كتب عن هذه الشعوب أو الألسنة المتعايشة في ذلك المجتمع الكثير من الدارسين الغربيين، وبعض من كتب عن عقد الذمة من فقهاء العصر دعا إلى وجوب الاهتمام بهذه الدراسات ورد الشبهات التي أثيرت حول معاملة المسلمين للذميين، لكن ما ينبغي أن ننبه إليه هو أن كثيراً مما كتبه المستشرقون الأسبان لا يكاد يعرفه إلا نسبة قليلة، ولذلك فهو جدير بأن يترجم إلى العربية وأن يرد على أصحاب تلك الكتب. على كل حال هذه المادة المستخلصة صنفتها في مستويين، أسميت الأولى في أفقين: أفق مناظرة، وعالجت فيها الدواعي التي أتاحت للمسلمين وللذميين أن يتواصلوا على مستوى المناظرة والحوار والجدال في كثير من الموضوعات الدينية وغيرها، وكان في مقدمة تلك العناصر ما أسميته بالازدواجية اللغوية. المستعربون هؤلاء فئة من النصارى اكتسبت عقد الذمة وشغفت حباً بلغة العرب وتعلمتها وترجمت منها وكتبت بها وفسحت لها ثقافتها الغربية إلى الوصول إلى البلاطات والمناصب العليا، لكن هل معنى ذلك أن المسلمين لم يكونوا يهتمون بلغة الآخر؟ كلا، بل كانوا يهتمون، وفي جمعات أنساب العرب لابن حزم الأندلسي تجد إشارة قد لا يقف عندها كثير من الناس مفادها أن بيت بني فلان في ظاهر قرطبة لا يجيدون إلا العربية، طبعاً ماذا تفهم من هذا؟ تفهم من هذا أن غير بيت بني فلان كانوا يجيدون العربية وغير العربية. في كتاب ابن الفردي من علماء الأندلس أكثر من إشارة إلى أن فلان القاضي كان يجلس إلى متقاضين من عرب ومستعربين ويخاطب كلاً بلغته هذا حديث يطول على كل حال، لكن هذا العنصر اللغوي سَّهل ازدهار نشاط الأندلسيين في هذا الأفق الذي أسميناه أفق المناظرة طبعاً هنالك نصوص لطيفة، ووجدت نصاً في (المعيار) للونشر يسي، نص كامل لمجلس مناظرة. أبو الحسين بن رشيد صاحب كتاب (الرسائل والوسائل) لم أقف على ترجمته حاولت ولم أستطع شيئاً من ذلك. في هذه المناظرة مع قساوسة في مجلس كنسي، تم فيه الحوار حوار المعجزة إعجاز القرآن الكريم،ودل ذلك على أن القساوسة لا أقول كل القساوسة ولكن كثير منهم يجيدون اللغة العربية ويقرؤون بها القرآن ويترجمون منه إلى لغتهم ما تدعو الحاجة إليه في المناظرة. طبعاً ابن حزم في كتابه بصفة خاصة ضمن إشارات كثيرة للحوار الذي كان بينه وبين

بعض اليهود. أيضاً الشاطبي في بعض كتاباته أفادنا بما ناقش به بعض اليهود. أنا درست في هذا الأفق الضوابط المنهجية، أجواء مجالس المناظرة، إلى آخره، واستخلصت منها أن مثلاً هذا الذي ناقش ابن الرشيد النص المستخرج من المعيار كان على حظ كبير من التأدب إذا ذكر رسول الله ﷺ.

المهم الأفق الثاني : هو أفق المعاملة، وهذه مستويات: معاملة في مجلس القضاء، معاملة في الحياة اليومية، الاحتفالات التي كان يحضرها المسلمون والنصارى معاً، في الأسواق في البيع والشراء، لكن أهم شيء في هذا البحث كان هو ما استخلصته من معطيات لعقد الذمة في التعارف.

وأشكر لكم إنصاتكم وصبركم، وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

المناقشات

فضيلة الدكتور عادل قوته

نشكر لأستاذنا ومحاضرنا الأستاذ الدكتور حسن عبد الكريم الوراكلي على هذه المحاضرة المفتّقة للأذهان وللبحث والتساؤلات،وعندي لو لم يكن إلا أنه قد حلّ بعض الإشكالات وفسرها حول بعض مواقف الفقهاء من الآراء المتشددة في مواقفهم من أهل الذمة لكانت كافية لأن أكون تلميذاً له في هذه المحاضرة.

لدينا بعض الأفاضل من الوجوه الكريمة لهذا المنتدى يطلبون التعليق والمداخلة في مقدمتهم:

فضيلة الدكتور خليفة بابكر الحسن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ، فأشكر الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي على محاضرته الطيبة وحديثه الذي كشف وأبان عن أن المسلمين كانوا على مستوى من التحضر بالكيفية التي استطاعوا من خلالها أن يبتدعوا النظام الذي يمكن أن يتعاملوا به مع الأقليات التي كانت تعيش في ظل الدولة الإسلامية آنذاك في مختلف بقاع الأرض مع أن المسلمين كانت لهم الغلبة وكانت لهم القوة ومع ذلك ابتدعوا أسلوب الحماية لغير المسلمين وطمأنوهم باعتبار أنهم بشر وأعطوهم الأمان والحماية وارتفعوا بمستوى إنسانيتهم بالتعامل، والنصوص في ذلك موجودة حتى غير ما جاء عن الفقهاء(من آذى لي ذمياً فقد آذنته بحرب) وغير ذلك من النصوص الكثيرة وصور التعامل التي كانت بين المسلمين وبين الذميين في عموم الأمر.

وحقيقة تعبير أهل الذمة تعبير لا غضاضة فيه لأن الذمة تعني الأمان والحماية بحيث إنهم في ذمة المسلمين، وجاء عن الرسول ﷺ في هذا المعنى حتى با لنسبة للمسلمين أنفسهم" المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم". وقد اعترف حقيقة كثير من الكتابيين من غير المسلمين اعترفوا بهذا النظام –نظام الجزية والحماية- ولم يروا فيه غضاضة واعتبروا أنه كان أسلوباً من أساليب الحماية لغير المسلمين . هناك بعض الفقهاء لديهم بعض الاتجاهات التي

يمكن أن نقول إنه يمكن أن يدانوا فيها ويمكن أن يكون أسلوبهم في ذلك أسلوباً غير سوي، يعني أن يفسر بعض الناس قول الله تعالى(**حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**) بأنه يضرب على قفاه بعد أن يعطي الجزية مثلاً، هذا .. (**وَهُمْ صَاغِرُونَ**) بمعنى وهم خاضعون باعتبار أن الغلبة للمسلمين.

لكن ما أريد أن أثيره من سؤال هو: أن عقد الذمة كان عقداً بين المسلمين وغير المسلمين في حال حماية المسلمين لغير المسلمين، لكن الذي أريد أن انتقل إليه الآن هو التعامل المطلق بين المسلم وغير المسلم بشتى صوره، هل نعتبر مثلاً كل من لم يحاربنا الآن هو من أهل الذمة وأهل الأمان من ناحية عامة، نحرِّك هذا المصطلح بهذه الكيفية، وبالتالي نستنبط هذه المعاني التي جاءت عن عقد الذمة الذي يعني الفقهاء وفي الدولة الإسلامية في القديم، أم ماذا؟ لأن عقد الذمة بشكله هذا هو عقد تاريخي نستفيد منه ونستنبط منه بعض العبر وبعض المعاني باعتبار حُسن التعامل وهذا شيء ثابت ومؤكد بالنسبة للإسلام وهو دين الرحمة، لا بد من أن تكون صورة التعامل مع غير المسلمين أو مع أهل الذمة بشكل خاص باعتبار أنهم يقيمون في الدولة الإسلامية على هذه الكيفية. وشكراً لكم.

<u>فضيلة الدكتور أحمد الريسوني</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر أولاً أستاذنا المحاضر على ما أمتعنا به وأفاد، وأيضاً أشكر شيخنا وأستاذنا العلامة الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة على حرصه الدءوب على مداومة هذه المحاضرات والسهر عليها وعلى اختيار عيون المحاضرين لهذه المحاضرات.

ما أريد أن أقوله بإيجاز يتعلق بكلمتين من كلمات العنوان، الكلمة الأولى هي الذمة. أريد أن أنبه بصفة اجمالية دون تفاصيل عن التحول التاريخي والتطور النوعي في التاريخ البشري الذي يعبر عنه مصطلح الذمة وأهل الذمة وعقد الذمة، فأظن ربما لأول مرة- على كل حال أهل التاريخ يمكن أن يستدركوا أو يفيدوا – تدخل العلاقات الدولية وعلاقات الخصوم والمتحاربين والأعداء على وجه التحديد في وضعية قانونية بالتعبير الذي ربما يفهم أكثر من غيره الآن. القانون الذي كان

سائداً هو قانون الغلبة ومن غلب يقتل ما يشاء وبالقدر الذي يشاء ويأسر ويسترق ويبيد ويستولي على ما يشاء ويفعل ذلك إلى ما لانهاية ولو إلى حد الاستئصال النهائي في النهاية كما فعل أصحابنا بالمسلمين في الأندلس حينما سقطت الأندلس واستسلمت الأندلس لم يكن هناك إلا تصرفاً واحداً ووحيداً وهو الاستئصال. دخلت العلاقات الدولية بين المسلمين وأعدائهم ومحاربيهم ومقاتليهم والمتآمرين عليهم في نطاق قانوني اسمه الذمة، والذمة لها حقوق وواجبات وتفاصيل إذن خرجنا من عهد الغلبة والهمجية وأن تقتل ما تشاء وتفعل ما تشاء بخصمك. كان الحاكم للجيش الذي ينتصر فيقتل النصف ويبقي النصف هذا يعد رحيماً كريماً ذا مروءة وشهامة حين لايقتل الجميع ولا يسترق، إلى آخره. هذا المغزى الأول لهذا التحول التاريخي الحضاري بمعنى بداية.

كما أن الإسلام داخلياً داخل مجتمعه أقام دولة القانون أي الدولة التي لها أحكام معينة تلزم الحاكم والمحكوم والقاضي والمقضي عليه إلى آخره، وهناك شريعة فوق الجميع دخلت العلاقات الدولية أيضاً والعلاقات بين الأمم والملل أيضاً في مرحلة الوضعية القانونية بغض النظر عن التفاصيل، لأن الاجتهادات الفقهية تصيب وتخطيء وتتأثر بظروفها وزمانها، إلى آخره، هذا كله يتجاوز لكن المبدأ.

الأمر الآخر هو التعارف نفسه. لماذا التعارف؟ والأستاذ نبه على أن التعارف هو تعارف المسلمين مع غير المسلمين، وليس تعارف المسلمين، فالمسلمون يلتقون في المسجد وفي الجمعة وفي العيد وغير ذلك. هذا التعارف نأخذ منه أن معظم الحروب والصراعات تأتي من عدم التعارف.

الكراهية والأحقاد والصراعات تأتي من عدم التعارف أو من سوء التعارف،وسوء التعارف أسوء من عدم التعارف، ونحن نعرف إلى حد الآن أننا نعاني يومياً من نظرة الغرب السيئة إلى الإسلام والمسلمين، هذا ضد التعارف، ما هو الذي ضد التعارف؟ هو التضليل. فإذن حينما تُمارس الأمم والجماعات والطوائف التضليل في معرفة بعضها البعض بدل أن تتعارف وبدل أن تترك الأمور على سجيتها لا نعرفهم ولا يعرفوننا، هناك التعريف المضلل، فلذلك كانت كلمة التعارف هو أن تعرفني

حقيقة وبشكل سوي وأعرفك كذلك حقيقة وبشكل سوي. فلذلك كان التعارف أيضاً مدخلاً حضارياً آخر. وشكراً لكم.

د. عادل قوته

شكراً يا سيدي على هذه المداخلة المنتجة. هناك سؤال من الأستاذ أحمد التيجاني محمد الأمين، قنصل عام السودان، لو تكرم الأستاذ بإعطائنا بيانا حول السماح لأهل الذمة باستعمال وشرب الخمور داخل منازلهم، وما هي مرجعية الفقهاء الذين أجازوا ذلك؟

فضيلة الدكتور حسن الوراكلي

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على معلمنا وقدوتنا سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

الحقيقة أن ما تحدث به الدكتور بابكر بخصوص عقد الذمة ومعاملة الذميين وأنظار الفقهاء إليها هو مما ألمنا به فيما أحسب (حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)، ونصوص أخرى في الحقيقة حينما تعود إلى كتب التفسير القديمة تجد أو تجد في بعضها حتى لا أعمم أن (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) تجد أن الفهم كان يحصر هذه الآية في نطاق تاريخي محدد ولا يمضي بالآية... لا يتخطى بها العصر النبوي ولا أسباب نزولها ولا وسط نزولها إلا آفاق أوسع هي به جديرة وحقيقة لمعالجة واقع الأمة راهناً وفيما مضى، لكن الأمر كما قلت لا يعني ذلك إلا ما يمكن أن يُفهم بكونه خضوعاً، طبعاً هذا جيش فاتح- كما أشار الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني –قوي وغلاب، ولكنه مع ذلك يؤسس لعقد ولأسلوب في المعاملة أعتبر بالفعل وهو كذلك فتحاً في العلاقات الدولية يعرض على أصحاب البلد الخيارين: أن تُسلم أوأن تعطي الجزية وتكسب مالدى المسلمين، الامام على –رضي الله عنه- يقول كلمة فيها كثير من المعاني والدلالات عن الذميين معتبراً إياهم مثل المسلمين(ما لنا وما عليهم وماعلينا). وكذلك في الحقيقة، الالتفاتة هذه للدكتور أحمد الريسوني جميلة جداً وهي أن قضية التعرف على الآخر بشكل سيء أو أريد له أن

يكون سيئاً هو في كثير من الأحيان أكثر من جهل الآخر، حقيقة وكثير من الصدامات وكثير من التدابر بين الأمم والشعوب مرده إلى غياب التعارف أو تقديم تعريف مغرض كما نقول وذي هوىً.

وبخصوص شرب الخمور ومزاولة الحياة اليومية اشترط الفقهاء على أن يكون ذلك ليس في وسط إسلامي، في بيوتهم، في كنائسهم لهم ذلك، وثمة نصوص فقهية تتضمن مثل هذا. وشكراً لكم.

سماحة الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها الإخوة الكرام لا يسعني في ختام هذه الجلسة إلا أن أُزجي التقدير والاحترام والشكر لمحاضرنا أو مسامرنا هذه الليلة لما تناوله من موضوعات تتصل بقضية أهل الذمة في الفقه الإسلامي، أي تتصل كما قال في أول حديثه بالآخر ومعاملة المسلمين للآخر. وهذه قضية أحسبها قضية أساسية في حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية من جميع الجوانب، ذلك أن الذي أوحي بهذا الموضوع أمران:

أولاً: ما تخصّص فيه وبه الأستاذ المحاضر الدكتور حسن الوراكلي من بحث ودراسة عميقة للتاريخ الأندلسي وللفكر الأندلسي وللمعاملات بين الأندلسين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى. فهذا موضوع أحسده عليه ولا أقول بأنه أتى في هذه المحاضرة بما نريده بل أقول: بأن الموضوع متسع جداً ولا يُستطاع القيام بكل التصورات أو تقديمها لأن هذه التصورات ناشئة عن حضارات متقابلة، الحضارة الإسلامية من جهة والحضارة الغربية من جهة ثانية سواء في الماضي أو في الحاضر.

وأعتبر أن تميزه عليّ وكم من جوانب يتميز بها معرفته اللغة الإسبانية، وهذا أقوله لأني عنيت بالأدب الأندلسي، والفكر الأندلسي والحضارة الأندلسية وكان يبعدني عن التعمق ويحول بيني وبين الوصول إلى الدقائق هو جهلي باللغة الإسبانية. فكنت وأنا أعد دراسات في هذا النوع الجأ إلى بعض الإخوان في السفارات أو في

غيرها ليترجموا لي بعض النصوص أستعين بذلك على تصوير المعنى ولو تصويراً قليلاً. هذا الذي تميز به الدكتور والحمد لله، أعانه على أن يقف على أسرار كثيرة في هذه العلاقات بين المسلمين في الأندلس، وهو بذلك قد هيّأنا بأن نبحث معه في هذه الجوانب بحثاً عميقاً لكن غير مقصور على الناحية التراثية، لأن الناحية التراثية أصبحت كما يقول الكثيرون غير معني بها، ولكن أردتها أنا شخصياً لأنها تُفيق وتُحيي الهمة عند المسلمين لبحث هذه الأشياء التي ظلموا فيها ولم يعرف الناس حقهم، ولذلك كان علينا أن نتبع هذا المنهج في دراسة التراث الإسلامي في كل بلد لنقف على أسرار هذه الشريعة وأسرار هذا التاريخ. وبذلك أقول: بأن الغربيين الذين كانوا يعاصرون تلك الفترات التاريخية وحتى اليوم منهم كثير من العلماء الذين بذلوا جهودا عجيبة في دراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي. وقد حضرت أنا شخصياً في مجلس كان فيه أحد المحاضرين من إخواننا العلماء التونسيين، والجانب الآخر هو الجانب الغربي النصراني، فكانت المقارنات في الفقه الإسلامي لهذا الغربي على المسلم العربي، لماذا؟ لأن الناس عندما يبحثون في هذه القضايا فيهم كثير من العلماء الذين يعملون ذلك بإخلاص للعلم ويبذلون جهود كبيرة. هذا لم يبق موجوداً الآن وهو عندنا يتطلع إليه، ومعنى أننا نتطلع إليه أن الوسائل الكافية لبلوغ هذه الدرجة بالنسبة للحضارة الغربية والفكر الغربي وبالنسبة للمهاجمات التي نلقاها من الغربيين ليس أمراً ميسوراً لكل أحد.

والأمر الثاني: هو أن هؤلاء الغربيين الذين يتهمون العالم الإسلامي بأنهم كانوا يعتمدون سياسة غير مقبولة وهي قضية إعطاء الجزية من جهة وسياسة أهل الذمة من جهة. هي كلها خير كما أشار إليها بعض الإخوان في المناقشة. هي كلها خير لو قارناها بما نحن فيه الآن، المسلمون في كل بلد أقل من أهل الذمة في العصور الإسلامية كلها، طيبها وغير الطيب منها، ماذا نلقى من العناصر الأخرى غير الإسلامية؟ هذه العناصر غير الإسلامية استطاعت أن تغير المسلمين وأن توجد بينهم تناقضاً وتباعداً واختلافاً كبيراً، فإلى أي وجه نتجه؟ وإلى أي منحى ننتحي إذا كانت تلك هي الحقيقة؟

أنا أعتقد أن الدراسات في هذا المجال سواء من الناحية التراثية أو من الناحية الأخرى التي نحتاج إليها اليوم والغربيون كلهم يكتبون حول الإسلام وموقفهم منه يتهموننا بكل خطأ، وبكل بُعد عن الآداب والأمان والتسامح في حين أننا فرطنا في حقوقنا تفريطاً لا حد له، ولذلك ينبغي أن نعيد الكرة بالدراسة أولاً لمعرفة هذه الحقائق، وثانياً لنجابه الخصوم بما يردهم على أعقابهم، بما يجعلهم ينتقلون من ظلمة ومعتدين إلى باحثين ومتزنين، لأن الاتزان غير موجود عندهم، هو مفقود تماماً ولأنهم في جميع كتاباتهم اليوم يهاجمون الإسلام ويهاجمون المسلمين بأنهم لا يعرفون حقوق الغير ولا يلتفتون إلى الآخر الالتفاتة التي تقتضيها الحضارة الإنسانية. نحن نلتفت إلى هؤلاء ولن تجد بين المسلمين وغير المسلمين في ديار المسلمين وخارج ديار المسلمين إلاّ المودة إذا كانت شروطها قائمة وإذا كانت المعاملة بالمثل، أما إذا كانت اغتصاباً وحقداً ومقاومة وظلماً فإن المسلمين لا يقبلون هذا. فالموقف من المسلمين اليوم موقف دفاعي وليس هجومياً، ولذلك ينبغي أن نخرج مما نحن فيه إلى حالة أخرى نكشف بها عن حضارة الإسلام. فالموقف الإسلامي الذي أردناه من بيان حقوق أهل الذمة إلى آخره هو صورة مما كان عليه المسلمون في حقيقة أمرهم في سياساتهم، في اجتماعياتهم، في اقتصادياتهم، في كل ألوان التعامل التي تكون بين الناس. وأرجو من الله أن يوفقنا لنأخذ بالطريق السديد الذي يحقق للإسلام ما خذلنا به الإسلام، لأننا كمسلمين لم نقم بواجبنا في التبليغ للإسلام الحقيقي الذي قال رسول الله ﷺ ووضع في أعناقنا المسؤولية الكبرى " ألا إني قد بلغت فاللهم فأشهد وليبلغ الشاهد منكم الغائب" يُبلغ بماذا؟ بما نعرفه عن الإسلام من حضارة، وبما نلمسه من خصائص إسلامية، وبما هو مدون وعفا عليه الزمن، والناس في هذا العصر من غير المسلمين ومن بعض الفئات المتأثرة بها يكيدون للإسلام كيداً ولا يعرفون للحق سبيلاً.

وأنا أجدد بهذه المناسبة شكري لحضراتكم وأعتبر أن هذه اللقاءات سبيلاً لإضافة كثير من القضايا التي لا نبحثها كل يوم فهذه طريقة للتعارف ولتنمية النظر في كثير من القضايا وكذلك بشكري للأستاذ الدكتور حسن الوراكلي على ما قدم وعلى ما ننتظر منه فليست هذه الكلمة إلا تقديماً للموضوع وليست

موضوعاً كاملاً، ولهذا نحن نصر على أن يتحفنا وأن يقدم لنا بحوثاً أخرى قيمة من هذا النوع ونشترط عليه لحفظ كلامه وحمايته من التغيير والتبديل أن يتفضل علينا بكتابة ما يلقيه حتى نستفيد منه ولا نغيره عندما نقوم بالنشر، وشكر الله لكم وجزاكم عنا كل خير.

فضيلة الدكتور حسن الاوراكلي

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

هذه كلمة كنت ألقيتها في صورتها الأولى في مجلس علمي حافل كان يحضره شيخنا الأستاذ الدكتور العلامة محمد الحبيب ابن الخوجة، ونشرت بعد ذلك مع نظائر لها في كتاب صدر جزؤه الأول قبل شهور بعنوان: (وشي وحلي، كلمات وفاء وحب في رجالات عرفتهم)، هذه الكلمة أحببت أن أسمعكم إياها تأكيداً لمشاعري تجاه شيخي وأستاذي الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة وإشراكاً لكم معي في هذه المشاعر، أسميتها: الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة كوكب دري من نور الزيتونة اتقد) اسمان تلازما عندي وتطابقا جامع الزيتونة المباركة والشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، أصدقكم القول نظرت في عطاء الزيتونة فألفيته يسبي العقل واللب، ثم نظرت في عطاء الشيخ محمد الحبيب فألفيته كذلك يسبي العقل واللب، ثار عندي لحظة إذن سؤال وسؤال، أي سر في تطابق الأسمين؟ أتراهما اسمين لواحد؟ هتف بي هاتف قال: ألا تعرف أن تعدد الأسماء من شرف المسمى؟ وقر في نفسي لحظة إذن ما أصبح مسلمة عندي من عقود وإلى ليلتنا هذه، الزيتونة هي الشيخ الحبيب، والشيخ الحبيب هو الزيتونة، هي الشجرة المباركة وهو كوكبها الدري من غُوَّائها اتقد وشع، أين من نوره نجوم الليل؟ وأين القمر؟ أو لا يكون لي أن أقول: إن سيرة الكوكب الدري من سيرة الشجرة المباركة التي منها اتقد وشع، لكن سيرة الشجرة المباركة مُترعةٌ غدواتها مفعمة الرواحات، سيرة الشجرة المباركة تنقضي ألف ليلة وليلة ولا تنقضي، أو لا يكون لي أن أعرض على مسامعكم هذه اللمعة من سيرة الشجرة المباركة خفق بها كوكبها الدري واختلج، اسمعوا عني واروا عني:

احتفل الشيخ ابن الخوجة في صباه بعلوم الآلة، نحوها، وصرفها، وأدبها، وبلاغتها حتى حذق وبرع، واحتفل الشيخ ابن الخوجة في ريعانه بعلوم الشرع: تفسيرها وحديثها وفقها وأصولها حتى أحاط واستوعب، ... بعد أن نال من معين أدب العربية وبيانها، تضلع بعد العبّ من نبع الكتاب والسنة والفقه، ثم تشوقت النفس الكبيرة والمنهومة بآن إلى المعرفة ما لدى غير العرب والمسلمين من لغة وفقه، فكان لصاحبها أن علم منطق العجم، لغة هوجو وراسيل ومولييه، وأوتي فقه العجم قانون دسرون وكابيتال، أوجز الكلام بذاك وهذا بفقه لغة الوحي وفقه الشرع بفقه لغة العجم وعلم القانون بذاك وهذا، بات في طوق الشيخ الدخول من أي أبواب العلم شاء، إن هذا لهو الفضل المبين.

سماحة الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

أنا مع تقديري حقيقة لهذه العواطف النبيلة لهذه الكلمات التي لا استحقها أرى من الواجب أن نتعاون لنكون جميعاً في مقدمة العاملين لخدمة الإسلام، فدورنا هو دور لا الدفاع وإنما دور التعريف بالإسلام الحقيقي وبيان آثار هذا التكوين الإسلامي بالنسبة للأمة أفراداً وجماعات، وفيما سنه علماؤنا وقام به شيوخنا رحمهم الله وحفظ من هو قائم حتى الآن أرجو ألا ننسى فضلهم فلهم علينا أيدٍ بالغة الرعاية وما قدموه لنا هو الأساس لما نقوم به نحن في هذا العصر، والله يسدد خطانا وخطاكم ويحملنا على تحقيق الغايات الجهادية العملية لنرفع من شأن هذه الأمة ونقوم بواجباتنا نحوها ونحو الإسلام أولاً وأخراً، وشكراً لكم.